شمس جديدة

قصة بقلم غسان كنفاني

صديقي العزيز مصطفى ..

استلمت رسالتك الآن وفيها تخبرني انك اتممت لي كل ما احتاجه ليدعم اقامتي معك في « ساكرمنتو » ، وكذلك وصلني ما يشعر انني قبلت في فرع الهندسة المدنية في جامعة «كاليفورنيا».. لابد لي يا صديقي من شكرك على كل شيء، لكن سيبدو لك غريباً بعض الشيء ان ازف اليك هذا النبأ ، وثق تماماً يا مصطفى انني لا أشعر بالتردد قط ، بل اكاد اجزم انني لم أر الامور بهذا الوضوح اكثر مني الساعة : لا يا صديقي ، لقد غيرت رأيي ، فأنا لن اتبعك الى حيث .. « الخضرة ، والماء ، والوجه الحسن » كما كتبت لي ، بل سأبقى هنا .. ولن ابرح ابداً !

أكاد اسمعك تذكرني بعهدنا على الاستمرار معاً ، وكيف كنا نهتف « سنصير اغنياء .. أغنياء » لكن يا صديقي ليس في يدي حيلة .. نعم ، انني لا زلت اذكر تماماً يوم وقفت في ساحة مطار الماظة بالقاهرة اشد على يدك واحدق بالمحرك المجنون .. كان كل شيء ساعتذاك يدور مع المحرك هذا الدوران الصاخب ، وكنت انت تقف امامي بوجهك الصامت المليء .. لم يتغير وجهك عن الوجه الذي نشأت به في حي (الشجعية) في غزة .. لولا هذه الغضون المسطحة ! لقد نشأنا معاً وكان احدنا يفهم الآخر تمام الفهم ، وتعاهدنا على الاستمرار معاً الى النهاية .. لكن ...

– بقي ربع ساعة وستقلع الطائرة .. لا تحدق هكذا باللاشيء ، اسمعني ، ستذهب في العام القادم للكويت ، وستوفر من راتبك ما يقتلعك من غزة الى كاليفورنيا .. لقد بدأنا معاً ويجب ان نستمر .. ...

وكنت لحظتذاك ارقب شفتيك وهما تتحركان صعوداً ونزولا بسرعة ، هكذا كانت طريقتك في الكلام ، لا فواصل ولا نقط !

لقد تعاقدت معك معارف الكويت في العام الماضي دون ان تتعاقد معي ، وفي غمرة البؤس الذي كنت اعيش فيه كانت تصلني منك في بعض الاحيان مبالغ صغيرة تريدني ان اعتبرها ديناً خوف ان اشعر بالصغار .. لقد كنت تعرف ظروفي العائلية تماماً، وكنت تعرف ان راتبي الضئيل في مدارس وكالة الغوث الدولية لم يكن يكفي لإعالة امي العجوز وزوجة اخي الارملة واولادها الأربعة

– اسمعني جيداً .. اكتب لي كل يوم ، كل ساعة ، كل دقيقة ، لقد اوشكت الطائرة ان تطير .. استودعك الله بل قل الى اللقاء .. الى اللقاء ..

ومست شفاهك الباردة وجنتي ، وادرت وجهك عني ميمماً شطر الطائرة وعندما التفت لي مرة ثانية كنت ارى دموعك .

وبعدها تعاقدت معي معارف الكويت ، وسافرت الى الكويت .. لا داعي لأن أكرر عليك كيف كانت تفاصيل حياتي هناك ، فلقد كنت اكتب لك دائماً عن كل شيء .. كانت حياتي دبقة فارغة كمحارة صغيرة : ضياع في الوحدة وتنازع بطيء مع مستقبل غامض كأول الليل، وروتين عفن ونضال صمغي مع الزمن ، كل شيء كان لزجاً حاراً ، وكانت حياتي كلها زلقة كالدبوس .. كلها توق الى آخر الشهر !

وفي منتصف العام – ذلك العام – ضرب اليهود مركز الصبحة ، وقذفوا غزة ، غزتنا ، بالقنابل واللهب ، كان يمكن ان يغير لي هذا الحدث شيئاً من الروتين ، لكنه لم يكن لي هناك ما آبه له كثيراً : فانا سأخلف هذه الغزة ورائي ، وسأمضي لكاليفورينا اعيش لذاتي التي تعذبت طويلا ، انني اكره غزة ، ومن في غزة ، كل شيء في البلد المقطوع يذكرني بلوحات فاشلة رسمها بالدهان الرمادي انسان مريض .. نعم ! لقد كنت ارسل لأمي ولأرملة أخي واولادها مبالغ ضئيلة تعينهم على الحياة .. لكنني – ايضاً – سأتحرر من هذا الخيط الاخير ، هناك ، في كاليفورينا الخضراء البعيدة عن رائحة الهزيمة التي تزكم انفي منذ سبع سنوات .. إن الشفقة التي تربطني باولاد أخي وامهم وامي لا يمكن ان تكمل جريان مأساتي هذا الجريان الشاقولي ، لا يمكن ان تشدني الى تحت ، الى تحت ، اكثر مما شدتني .. يجب ان اهرب !

وحل حزيران ، ورحل المعلمون من الكويت الى اهليهم ، ورحلت الى غزة ، ومنها سأرحل الى القاهرة ، ومن مطار الماظة سأبدأ جديداً كل الجدة !

كانت غزة كما تعهدها دائماً .. اضيق من نفس نائم اصابه كابوس مريع ، بأزقتها ذات الرائحة الخاصة ، رائحة الهزيمة والفقر، وبيوتها ذوات المشارف الناتئة ! انغلاق كأنه غلاف داخلي ، ملتف على نفسه ، لقوقعة صدئه قذفها الموج الى الشاطيء الرملي اللزج قرب المسلخ ...

وعند امي ، قابلتني زوجة أخي المرحوم ساعة وصولي ، وطلبت مني ، وهي تبكي، ان البي رغبة (ناديا) ابنتها الجريحة بمستشفى غزة ، فازورها ذلك المساء، انت تعرف ناديا .. اجل ابنة اخي الجميلة ذات الربيع الثالث عشر..

في ذلك المساء.. اشتريت رطلا من التفاح ، ويممت شطر المستشفى ازور ناديا .

ماذا حدث في تلك الساعة ؟ لا أدري ، لقد دخلت الغرفة البيضاء بهدوء جم. كانت ناديا مستلقية على فراشها وظهرها معتمد على مسند ابيض انتشر عليه شعرها البني الناعم كفروة ثمينة .. كان في عيونها الواسعة صمت عميق ، ودمعة هي ابداً في قاع بؤبؤها الاسود البعيد ، ووجهها كان هادئاً ساكناً لكنه موح كوجه نبي معذب ! لا زالت ناديا طفلة لكنها كانت تبدو اكثر من طفلة، اكثر بكثير ، واكبر من طفلة ، اكبر بكثير ! – ناديا .

لا ادري هل انا الذي قلتها ، ام امها خلفي ، لكنها رفعت عيناها نحوي ، وشعرت بهما تذيبانني ككتلة صغيرة من السكر سقطت في كوب شاي ساخن .

ومع بسمتها الخفيفة سمعت صوتها من بعيد :

تاريخ اسبانيا الاسلامية

للمؤرخ الاندلسي لسان الدين بن الخطيب

وهو يشمل على اعمال الاعلام ، في من بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام

صدر عن دار المكشوف ، بيروت

خذها من يدي

[قرأت في إحدى الصحف ان امرأة مصرية من بورسعيد خنقت جندياً عدواً فأردته]

أيها الغدّار خذها من يديّ
قبضتي هذي حديدٌ يا عنيدْ
والردى في قبضتيّ
وسأرديكَ بثأري وحده
لا بالتعدّي
أي فخر بالتعدي
قوة الشعب الأبيّ لا تردْ
كل طفل بطلٌ كل عجوز تستعدْ
هاك خذها من يديّ
بيدي لا بالسلاح
أيها الوغد الوقاحْ
أشرقت شمس الكفاحْ
هذه أختي تناضلْ
وأبي شيخ كبيرْ
وهنت منه المفاصلْ
وأبي الشيخ يقاتلْ
لن تنالْ ما تريدْ
قوة الحق تبيدْ
كل قوه
لن تخيف النار شعباً
يتلظى بالحميهْ
كل أبنائي جنود وأسودْ
كل أمّ هي في مصر تجود
والعقيم تتشهى وتقولْ
ليتني كنت ولودْ
ليتني كنت ولودْ لأسودْ بالنضالْ
كل أمّ تتمنى أن تكونْ
ألف أمّ للقتالْ
أيها المغرور في حشد الأساطيل تمردْ
وتوعّدْ
نحن في الصف الموحّدْ
نتجددْ
نتوقدْ
ثورة لا تعرف النار لظاها
نحن فجّرنا من القلب لظاها
هاك خذها من يديّ
ميتة من حقد أمّ عربيهْ
ميتة للهمجيهْ
وبنياتي الصغارْ في اللهيبْ
انها ذابت
ولكن بورسعيدْ
في الشهيد
والفدائي العتيد
عبق الفجر الرغيد

دمشق **عزيزة هارون**

— عمي ، هل وصلت من الكويت ؟

وتكسر صوتها في حنجرتها ، ورفعت نفسها متكئة على كفيها ومدت عنقها نحوي ، فربت على ظهرها وجلست قربها .

— ناديا ، لقد احضرت لك هدايا من الكويت ، هدايا كثيرة ، سأنتظرك الى حين تأتين لداري فأسلمك اياها ، لقداشتريت لك البنطال الاحمر الذي ارسلت تطلبينه مني ..

كانت كذبة وّلدها الموقف المتوتر ، وشعرت وانا الفظها كأنني اتكلم الحقيقة لاول مرة .. اما ناديا فلقد ارتعشت كمن مسه تيار صاعق.. وطأطأت رأسها بهدوء مريع واحسست بدمعها يبلل ظاهر كفي :

— قولي يا ناديا ، الا تحبين البنطال الأحمر ؟

ورفعت بصرها نحوي ، وهمت ان تتكلم لكنها كفت ، وشدت على اسنانها وسمعت صوتها مرة اخرى من بعيد بعيد : — يا عمي ..

ومدت كفها فرفعت باصابعها الغطاء الابيض ، وأشارت الى ساق مبتورة من اعلى الفخذ !! يا مصطفى !

ابداً لن انسى ساق ناديا المبتورة من اعلى الفخذ ، لا ، لن انسى ناديا ابداً ولن انسى الحزن الذي هيكل وجهها واندمج في تقاطيعه الحلوة الى الأبد .

لقد خرجت يومها من المستشفى الى شوارع غزة ، وانا اشد باحتقار صاعق على الجنيهين اللذين احضرتهما معي لاعطيهما لناديا .. كانت الشمس الساطعة تملأ الشوارع بلون الدم .. كانت غزة ، يا مصطفى ، جديدة كل الجدة ، ابداً لم نرها هكذا انا وانت : الحجارة المركومة على اول حي الشجعية ، حيث كنا نسكن ، كان لها معنى كأنما وضعت هناك لتشرحه فقط .. غزة هذه التي عشنا فيها مع رجالها الطيبين سبع سنوات في النكبة كانت شيئاً جديداً كل الجدة .. كانت تلوح لي انها انها .. انها بداية فقط ، لا ادري لماذا كنت اشعر انها بداية فقط ، كنت اتخيل ان الشارع الرئيسي وانا اسير فيه عائداً الى داري ، لم يكن الا بداية صغيرة لشارع طويل طويل يصل الى صفد . كل شيء كان في غزة هذه ينتفض حزناً على ساق ناديا المبتورة من اعلى الفخذ ، حزناً لا يقف على حدود البكاء ، انه التحدي ، بل اكثر من ذلك ، انه شيء يشبه استرداد الساق المبتورة .

لقد خرجت الى شوارع غزة ، شوارع يملأها ضوء الشمس الساطع ، لقد قالوا لي ان ناديا فقدت ساقها عندما القت نفسها على اخوتها الصغار تحميهم من القنابل واللهب .. كان يمكن لناديا ان تنجو بنفسها ، ان تهرب ، ان تنقذ ساقها ، لكنها لم تفعل ... لماذا ؟!

لا يا صديقي ، لن آتي لسكرمنتو ، وانا لست آسفاً البتة ، لا ، ولن اكمل ما بدأناه معاً منذ طفولتنا . لأن هناك ناديا ، وهناك كثير مثل ناديا يشيرون لنا ويبتسمون .. لن آتي اليك ، بل عد انت لنا .. عد لتتعلم من ساق ناديا ، المبتورة من اعلى الفخذ ، ما هي الحياة وما قيمة الوجود .

عد يا صديقي ، فكلنا ننتظرك .

المخلص

الكويت **غسان كنفاني**